يربعام الأول
الملك الفذ

يسرد الكتاب المقدس قصصا عديدة لشخصيات مختلفة، منها لأناس عاديين ومنها لأناس مميزين كالملوك. من هذه القصص من اشتهر أصحابها ومنها من بقي مغمورا، نادرا ما يعرف الناس عنها شيئا. وأيضا منها ما وضع هالة قداسة كبيرة حولها، ربما لا تستحقها، ومنها من ذكرت مغلفة بالرفض والإشمئزاز، مقذوفة بتهم بعضها حقيقي وبعضها ما هو غارف من التقليد الديني الشعبي أكثر منه من نص الكتاب المقدس نفسه. وهذا النوع الأخير ينطبق على يربعام بن ناباط ،الذي أسميه هنا يربعام الأول.

يربعام، عادة ما يُذكر كنموذج لرجل شرير، قسم مملكة سليمان، وابتدع ديانة باطلة مقابل العبادة المُعطاة من الله بحسب أسفار الشريعة. ولا نقصد أن نقول عكس هذا، فنصوص العهد القديم تصف يربعام صراحة وبوضوح على أنه صاحب طريق شرير "بَعْدَ هذَا الأَمْرِ لَمْ يَرْجِعْ يَرُبْعَامُ عَنْ طَرِيقِهِ الرَّدِيَّةِ، بَلْ عَادَ فَعَمِلَ مِنْ أَطْرَافِ الشَّعْبِ كَهَنَةَ مُرْتَفَعَاتٍ. مَنْ شَاءَ مَلأَ يَدَهُ فَصَارَ مِنْ كَهَنَةِ الْمُرْتَفَعَاتِ" (1ملوك 33/13)، قد حرض الشعب على "سَلَكَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي جَمِيعِ خَطَايَا يَرُبْعَامَ الَّتِي عَمِلَ. لَمْ يَحِيدُوا عَنْهَا" (2ملوك 22/17). وتتابع نصوص أسفار الملوك هذا المسلك في الوصف، لتُحوّل يربعام إلى مضرب للمثل لمعظم إن لم يكن لكل ملوك إسرائيل اللاحقين له! فعبارات مثل: "خطايا يربعام بن نباط" أو "طريق يربعام وخطيته" أصبحت وصفا يميز أولئك الملوك الذين فضلوا السير في طريق بعيدة عن العبادة الحقيقة. والواقع تطول اللائحة لتطال تقريبا كل ملوك إسرائيل! ناداب ابنه 1ملوك 26/15 و30، بعشا 1ملوك 34/15 و2/16 و7، أيلة 1ملوك 13/16، زمري 1ملوك 19/16، عمري 1ملوك 26/16، أخاب 1ملوك 31/16، أخزيا 52/22، يهورام 2ملوك 3/3، ياهو 2ملوك 29/10 و31، يهوآحاز 2ملوك 6/13، يوآش 2ملوك 11/13، يربعام الثاني 2ملوك 24/14، زكريا 2ملوك 9/15، منحيم 2ملوك 18/15، فقحيا 2ملوك 24/15، فقح 2ملوك 28/15.

كل هذا يجعل الكتابة على يربعام، أو حتى إطلاق مثل هذه التسمية "الملك الفذ" عليه، مجازفة لن يرضى عنها كثيرون. وأنا هنا، لست بصدد تبرئة ساحة يربعام، وتحويله إلى رجل الله، أو ذلك القديس الذي وقف من أجل الله، بل أحاول قراءة حياة وأفعال هذا الملك، وتسليط الضوء على جوانب مهمة تتعلق بأعماله وإنجازاته.

من هو يربعام؟

لا نملك الكثير لتقديم إجابة مفصلة وافية. لكن، من الملاحظات العابرة التي وردت هنا وهناك في أسفار الملوك، نستطيع أن نقول عنه:

⇐ الوالدان:

اسمه يربعام، أبوه ناباط واسم أمه صروعة، يصفها (1ملوك 26/11) بأنها أرملة، ولربما في هذا إشارة ليس إلى موت رجلها، بمقدار ما هي إشارة إلى موت مبكر لناباط بالنسبة لحياة يربعام.

⇐ الزوجة والأولاد:

تُذكر زوجته، بدون ذكر اسمها. تظهر فجأة على مسرح الأحداث بسبب مرض ابنهما أبيا، حيث يشجعها يربعام على الذهاب لسؤال أخيا نبي الله بشأن مرض الغلام. ذهبت المرأة، فما كان لدى أخيا جوابا سوى تأكيد موت الغلام بمرضه، وفي الوقت عينه حملها تأكيدا آخر على زوال مملكة زوجها كما سيأتي تفصيله لاحقا (1ملوك14).

⇐ أعماله:

أقامه سليمان وكيلا على أعماله في عشيرة يوسف، ربما لانتمائه أساسا لهذه العشيرة كما يوضح العدد 28 من الشاهد السابق "فَلَمَّا رَأَى سُلَيْمَانُ الْغُلاَمَ أَنَّهُ عَامِلٌ شُغْلاً، أَقَامَهُ عَلَى كُلِّ أَعْمَالِ بَيْتِ يُوسُفَ".

ومن صفاته الشخصية نعلم كذلك في نفس العدد أنه كان رجلا قويا مقاتلا مقتدرا، وهذا في الغالب معنى العبارة "وَكَانَ الرَّجُلُ يَرُبْعَامُ جَبَّارَ بَأْسٍ".

⇐ شهرته:

من الواضح تماما أن الرجل كان ذا شهرة ومكانة مميزة، الأمر الذي نجده بوضوح في سياق سرد قصته في الأصحاح 11 من سفر ملوك الأول:

- ❖ بداية، نجد أخيا النبي يتلقفه ليخبره بمخطط الله بالنسبة لحياته ومستقبله السياسي.
- ❖ شعور سليمان بالخطر من صولة يربعام ومكانته، حتى طلب قلته.
- ❖ ثم استقبال شيشق ملك مصر ليربعام، الحدث الذي يشير حتما إلى شهرة قد طارت ووصلت إلى مصر. لكن هذه الحادثة يمكن أن تشير أيضا إلى الموقف المتربص بالمملكة الفتية من قبل الفراعنة، هذا بالرغم من المصاهرة التي تمت بين المملكتين بزواج سليمان "وَصَاهَرَ سُلَيْمَانُ فِرْعَوْنَ مَلِكَ مِصْرَ، وَأَخَذَ بِنْتَ فِرْعَوْنَ وَأَتَى بِهَا إِلَى مَدِينَةِ دَاوُدَ إِلَى أَنْ أَكْمَلَ بِنَاءَ بَيْتِهِ وَبَيْتِ الرَّبِّ وَسُورِ أُورُشَلِيمَ حَوَالَيْهَا" (1مل1/3). فشيشق لم يستقبل فقط يربعام ويحميه، بل كان قد استقبل قبله هدد الآدومي (1مل17/11)!

ممهدات الانقسام:

تقريبا، لا يختلف إثنان من قارئي الكتاب المقدس على اعتبار يربعام سبب انقسام مملكة سليمان. وبالتالي تحميله كل التبعات السلبية والشريرة التي نتجت عن هذا العمل الفاسد. لكن قراءة النصوص لا توصلنا إلى هذه النتيجة، ونقول "قراءة" لأننا نقصد أن الأمر لا يحتاج إلى أبحاث ودراسات. لأن قراءة متأنية متفحصة للنص، تعطينا فكرة جيدة على دور يربعام بن ناباط في الإنشقاق، هذا الدور الذي لن يتعدى حالة "القشة التي قصمت ظهر البعير"!

لنبدأ بإستطلاع قصة المملكة قبل الانقسام، ولنعد إلى الوراء قليلا لنصل إلى عصر داود. حكم داود المملكة بعد شاول الملك ما يقارب الأربعين سنة. بدأ عهده بإنقسام وحرب أهلية، استطاع داود بحنكة وبطش إنهاء الانقسام، والاستقرار في مملكة دان شعبها له معظم الوقت.

ونقول معظم الوقت لأن أحداثا هامة جرت في عهده شكلت ضربات قاسية لوحدة المملكة، لربما أبرزها تمرد ابنه أبشالوم عليه، وتحريض الشعب على داود، الأمر الذي لم ينته إلا بشبه حرب أهلية، قضى على إثرها ابشالوم وبضعة آلاف من الشعب. ثم أتى تمرد شبع بن بكري، الذي لم يكن تمرده أقل ضررا من تمرد أبشالوم.

لكن داود لم يسلم الملك لسليمان سوى على أنقاض مجموعة من المؤامرات والمحسوبيات، اضطرت سليمان لتصفية بعض الأخصام، بمن فيهم أخيه، حتى يصفو الجو له، ويستقر على العرش.

وعندما ندرس فترة حكم سليمان، التي امتدت هي الأخرى ما يقارب الأربعين سنة، نجد هناك ستة عوامل جعلت المملكة جاهز للانقسام، بل تنتظر حدثا بسيطا ليشعل فتيل الانفجار.

⇐ ابتعاد سليمان عن العبادة الصحيحة:

فسليمان الذي بدأ عصره بإعلانات إلهية فريدة (1ملوك3)، وبهيكل يتدخل الله شخصيا بمباركته (1ملوك8 و9)، يصل في السنوات الأخيرة من حياته إلى حالة من الإنغماس بالشر والتنكر لإلهه لا يمكن وصف تلك الحالة سوى بالخطية التي لا تُغتفر! حيث يقول عنه الوحي "وَكَانَ فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةِ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلاً مَعَ الرَّبِّ إِلهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ. فَذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَثَ إِلهَةِ الصِّيدُونِيِّينَ، وَمَلْكُومَ رِجْسِ الْعَمُّونِيِّينَ. وَعَمِلَ سُلَيْمَانُ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَلَمْ يَتْبَعِ الرَّبَّ تَمَامًا كَدَاوُدَ أَبِيهِ" (1مل11/4-6).

إذا، ليس الشعب مَن أنكر إلهه، بل الملك نفسه، الذي اعتبر نفسه دائما حامي حمى العبادة الصالحة. وعندما يبدأ الملك التقي بصنع التماثيل وتوزيعها في كل الأماكن، ماذا سيفعل الشعب عندئذ!

⇐ المصاهرات السياسية غير البريئة:

لم يخطئ سليمان فقط في قضية تعدد الزوجات، الأمر المخالف لوصية الكتاب المقدس "وَأَحَبَّ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ نِسَاءً غَرِيبَةً كَثِيرَةً مَعَ بِنْتِ فِرْعَوْنَ: مُوآبِيَّاتٍ وَعَمُّونِيَّاتٍ وَأَدُومِيَّاتٍ وَصِيدُونِيَّاتٍ وَحِثِّيَّاتٍ، مِنَ الأُمَمِ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمُ الرَّبُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: لاَ تَدْخُلُونَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ لاَ يَدْخُلُونَ إِلَيْكُمْ، لأَنَّهُمْ يُمِيلُونَ قُلُوبَكُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ. فَالْتَصَقَ سُلَيْمَانُ بِهؤُلاَءِ بِالْمَحَبَّةِ" (1مل11/1-2). بل وأخطأ بإقامة مصارهات سياسية لم تجلب له سوى المتاعب. فملك آرام شجع ودافع عن رزون بن أليداع (1مل11/23-25)، وكما رأينا سابقا لم يلعب ملك مصر دورا أقل ضررا بتبنيه قضية هدد الأدومي ويربعام بن نباط!

⇐ حالات تمرد عديدة:

كما رأينا سابقا، هناك ثلاثة تمردات سياسية – عسكرية واجهت سليمان. وهذا ما ذكر، ولعل الواقع عَرَفَ حالات أخرى عديدة لم يُشر إليها الوحي. لكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن هذه التمردات لم تكن سهلة يسيرة، وإن كان النص الكتابي لا يعطيها سوى مساحة بضعة أسطر، فكما اشرنا في العامل السابق، كانت هناك تمردات داخلية مدعومة بشكل مسبق أو لاحق من قبل قوى إقليمية لا يُستهان بها.

⇐ تدخل الله لصالح الإنشقاق:

لا خلاف في اعتبار هذا العامل "صك براءة" بحق يربعام! فالنص واضح جدا "فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ" وبالتالي توعده: "فَإِنِّي أُمَزِّقُ الْمَمْلَكَةَ عَنْكَ تَمْزِيقًا وَأُعْطِيهَا لِعَبْدِكَ" (1مل11/9

و11). ولن يطول الزمن حتى يلاقي أخيّا النبي يربعام ويستوقفه لينقل له رسالة من الله. أمّا خلاصة تلك الرسالة فمرعب حقا "لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: هأَنَذَا أُمَزِّقُ الْمَمْلَكَةَ مِنْ يَدِ سُلَيْمَانَ وَأُعْطِيكَ عَشَرَةَ أَسْبَاطٍ. وَيَكُونُ لَهُ سِبْطٌ وَاحِدٌ" (1مل31/11 و32). هل كان لدى يربعام أطماع في سلطة أعلى أو أقوى، أو حتى في المُلك نفسه؟ ربما، لكن المبادرة لم تأت منه، بل أتت من الله نفسه.

⇐ حالة تململ شعبي خانقة:

إن التمعن في حالات التمرد التي جرت أيام سليمان، والتي أوردنا ذكر ثلاثة منها، تشير حتما إلى حالة تململ ما، وعدم قبول شعبي كامل للأوضاع. لكن ما حدث في حفل تنصيب رحبعام ابن سليمان كان أكثر وضوحا وتأكيدا أن الأوضاع لم تكن مريحة ابدا. فقد اجتمع الشعب إلى رحبعام ليشترطوا عليه قبولهم به ملكا " إِنَّ أَبَاكَ قَسَّى نِيرَنَا، وَأَمَّا أَنْتَ فَخَفِّفِ الآنَ مِنْ عُبُودِيَّةِ أَبِيكَ الْقَاسِيَةِ، وَمِنْ نِيرِهِ الثَّقِيلِ الَّذِي جَعَلَهُ عَلَيْنَا، فَنَخْدِمَكَ" (1مل4/12). ونعلم من القصة التي سنأتي على تفاصيلها لاحقا، أن رحبعام لم يستجب لهم، وبالتالي لم يعطوه الولاء، ولم يستكينوا له.

⇐ وريث ضعيف غير مدرب:

نفس حادثة التنصيب التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة، ترينا أن الملك الجديد كان غرا مغرورا بنفسه لا يفقه بالسياسة شيئا بل ولا يريد ذلك. والقصة المشهورة عنه يوم استشار مجموعة من الشبان مقابل رهي مشورة خبراء المملكة خلف ظهره، كانت أول وأكبر مثال على ولي عهد عاش في ظل عملاق اسمه سليمان، رهى عليه هيبته دون أن يعطيه من حكمته شيئا.

ظهور يربعام والانقسام

ليس لدينا أدنى تفصيل زمني متعلق بأحداث الانقسام واكتماله، لكننا نميل للإعتقاد أن الأمر لم يستغرق سوى بضعة أشهر من بعد موت سليمان.

إذا، مات سليمان الملك المشهور جدا بين شعبه والممالك المجاورة. في الوقت عينه مات سليمان الدكتاتور المرعب، الذي كانت ترتجف أمامه الهامات، خاصة بعد أن مال للوثنية، واختلطت المبادئ والتعاليم، فلم يعد أحد يعرف الأسس التي سيتعامل بها الملك مع قضايا الناس.

لا تظهر من نصوص أسفار الملوك أية خلافات متعلقة بولاية العرش، فالنص يقدم لنا رحبعام كالوريث الطبيعي والشرعي. الذي لا نعرف كم يوما أو كم أسبوعا قضى في الحداد على أبيه. وفي كل حال مهما طال أو قصر الحداد، أتى وقت التنصيب، الذي نقرأ تفاصيله والأزمة التي رافقته في ملوك الأول 20 وأخبار الأيام الأول 10. ماذا حصل في احتفالات التنصيب؟

⇐ احتفالات التنصيب كانت مقررة في شكيم، وسنأتي على بعض التفاصيل بخصوص المدينة لاحقا.

⇐ أرسل الشعب، أو مَن هم مِن حلف مضاد لرحبعام، رسلا إلى يربعام الذي كان في منفاه في مصر، وطلبوا منه الحضور.

⇐ حضر ممثلون عن ذلك الحلف بقيادة يربعام وعرضوا على رحبعام مطالبهم التي يختصرها النص بالقول: "إِنَّ أَبَاكَ قَسَّى نِيرَنَا، وَأَمَّا أَنْتَ فَخَفِّفِ الآنَ مِنْ عُبُودِيَّةِ أَبِيكَ الْقَاسِيَةِ، وَمِنْ نِيرِهِ الثَّقِيلِ الَّذِي جَعَلَهُ عَلَيْنَا، فَنَخْدِمَكَ".

⇐ طلب رحبعام مهلة ثلاثة أيام لمناقشة المطالب،

⇐ عاد يربعام والجماعة بعد انقضاء المهلة وتقلوا الرد: "أَبِي ثَقَّلَ نِيرَكُمْ وَأَنَا أَزِيدُ عَلَى نِيرِكُمْ. أَبِي أَدَّبَكُمْ بِالسِّيَاطِ وَأَنَا أُؤَدِّبُكُمْ بِالْعَقَارِبِ".

⇐ فهم الشعب الرسالة، ولخص موقفه بالقول: "أَيُّ قِسْمٍ لَنَا فِي دَاوُدَ؟ وَلاَ نَصِيبَ لَنَا فِي ابْنِ يَسَّى! إِلَى خِيَامِكَ يَا إِسْرَائِيلُ. الآنَ انْظُرْ إِلَى بَيْتِكَ يَا دَاوُدُ. وَذَهَبَ إِسْرَائِيلُ إِلَى خِيَامِهِم". وهذا يعني باختصار أن معظم الأسباط لم تعطِ الولاء للملك الجديد.

⇐ لكن عشيرة يهوذا نصّبوا رحبعام ملكا! "وَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ السَّاكِنُونَ فِي مُدُنِ يَهُوذَا فَمَلَكَ عَلَيْهِمْ رَحُبْعَامُ".

⇐ بعد ذلك أرسل الملك ممثلا عنه لسبب ما، لعلها كانت محاولة لاستمالة الشعب، فكان الرد قاسيا وحاسما جدا، حيث رجم الشعب أدورام ممثل الملك.

⇐ فهم رحبعام الرسالة حتى أنه "بَادَرَ الْمَلِكُ رَحُبْعَامُ وَصَعِدَ إِلَى الْمَرْكَبَةِ لِيَهْرُبَ إِلَى أُورُشَلِيمَ". لقد فهم أن الأمر جدي حقا، وأن القضية تحتاج إلى معالجة أكثر حكمة مما يحتمل عقله الصغير.

أما التحرك المضاد لرحبعام، من قِبل يربعام ومَن حوله، فيصفه لنا النص بوصفين أو بموقفين:

⇐ الأول " فَعَصَى إِسْرَائِيلُ عَلَى بَيْتِ دَاوُدَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ"

⇐ الثاني أن القبائل التي عصت، مشت بعصيانها حتى النهاية حيث نصبت يربعام عليها ملكا، فتكرس الإنقسام على الشكل التالي "وَمَلَّكُوهُ عَلَى جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ. لَمْ يَتْبَعْ بَيْتَ دَاوُدَ إِلاَّ سِبْطُ يَهُوذَا وَحْدَهُ"!

تنظيمات يربعام السياسية

وجد يربعام نفسه فجأة ملكا على أكثر من ثلثي الشعب أو ربما ثلاثة أرباعه. لكنه لم يملك على حالة فوضى، فقد استلم تنظيمات ترسخت على مدار حياة ملكين كبيرين وقويين هما داود وسليمان. وربما لهذا السبب لا نجد قصص الملوك تقدم لنا أية أخبار عن أمور جوهرية متعلقة بتنظيمات سياسية بارزة قام بها. أو أن عدم ذكر إنجازاته كانت بسبب أن كاتب القصة كان يكتب قصة ملوك يهوذا أكثر مما يفعل مع ملوك إسرائيل.

على كل حال، لا نستطيع أن نغفل عن تنظيم سياسي هام قام به هو إقامة عاصمة له ومن ثم تغييرها. فقد بدل يربعام عاصمة مملكته الجديدة ثلاث مرات! كانت أولها شكيم، ثم فنوئيل وآخرها ترصة. قبل أن يستحدث عمري عاصمة جديدة ستستمر لمملكة إسرائيل حتى فناء المملكة.

⇐ العاصمة الأولى- شكيم:

كان اختيار يربعام لشكيم عاصمة لمملكته الجديدة، اختيارا موفقا جدا. فبالاضافة إلى موقعها الجغرافي المميز، وتضاريسها ومحيطها، كانت شكيم اسما وموقعا يحمل تميزا خاصا في وجدان كل يهودي آنذاك!

❖ كانت شكيم أول محطة لإبراهيم عندما وصل إلى أرض كنعان "وَاجْتَازَ أَبْرَامُ فِي الأَرْضِ إِلَى مَكَانِ شَكِيمَ إِلَى بَلُّوطَةِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأَرْضِ" (تكوين 6/12).

- وأول محطة ليعقوب إثر عودته من غربته في فدان آرام، ليستقر في أرض آبائه "ثُمَّ أَتَى يَعْقُوبُ سَالِمًا إِلَى مَدِينَةِ شَكِيمَ الَّتِي فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، حِينَ جَاءَ مِنْ فَدَّانِ أَرَامَ. وَنَزَلَ أَمَامَ الْمَدِينَةِ. وَابْتَاعَ قِطْعَةَ الْحَقْلِ الَّتِي نَصَبَ فِيهَا خَيْمَتَهُ مِنْ يَدِ بَنِي حَمُورَ أَبِي شَكِيمَ بِمِئَةِ قَسِيطَةٍ" (تكوين 18/33 و19).
- وهي المكان الذي دفن فيه الشعب عظام يوسف بعد خروجهم من مصر (تكوين 25/50 ويشوع 32/24).
- كانت شكيم مكان التجمع الأول لكل الشعب بعد أن استولوا على الأرض بقيادة يشوع (يشوع 1/24).
- كما كانت مدينة مشهورة بين شعب بني إسرائيل، لأنها كانت احدى مدن الملجأ! (يشوع 7/20).
- ويبدو أن المدينة استمرت تحمل أهمية خاصة حتى أيام سليمان. فبعد موت سليمان الملك، ذهب ولي العهد رحبعام إلى شكيم للتنصيب (1ملوك 1/12).

عندما وقع اختيار يربعام على شكيم، كان خيارا موفقا حتما، فكل الشعب يعرف شكيم، ويرتبط بها عاطفيا ودينيا ارتباطا كبيرا!

⇐ العاصمة الثانية- فنوئيل:

لا نعرف الأسباب التي دعت يربعام لنقل عاصمته من شكيم إلى فنوئيل. فالتصريح الكتابي الوحيد بخصوص هذه النقلة هو: "بَنَى يَرُبْعَامُ شَكِيمَ فِي جَبَلِ أَفْرَايِمَ وَسَكَنَ بِهَا. ثُمَّ خَرَجَ مِنْ هُنَاكَ وَبَنَى فَنُوئِيلَ" (1ملوك 25/12). وربما التعليل الوحيد لهذه النقلة، محاولته التحصن في مدينة أقل عرضة لهجمات خارجية، أو أكثر صمودا أمام الأعداء. فما الذي يميز فنوئيل في أحداث العهد القديم؟

في الواقع، هناك حادثة واحدة بارزة جدا ترتبط بهذه المدينة، هي قصة الرؤيا التي حصلت ليعقوب، وتصارعه مع الرب (تكوين 31/32). فيما بعد ذُكرت المدينة في سياق صعود نجم جدعون كقاضٍ للشعب (قضاة 8).

⇐ العاصمة الثالثة- ترصة:

ليس لدينا تصريحا واضحا بخصوص نقل يربعام عاصمته من فنوئيل إلى ترصة، لكن السياق يوحي أنه استقر أخيرا في ترصة. فمن ناحية كان يسكن هناك "فَقَامَتِ امْرَأَةُ يَرُبْعَامَ وَذَهَبَتْ وَجَاءَتْ إِلَى تِرْصَةَ، وَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى عَتَبَةِ الْبَابِ مَاتَ الْغُلاَمُ" (1ملوك 17/14). ومن ناحية أخرى يخبرنا تاريخ المملكة أن بعض خلفاء يربعام ملكوا في ترصة، مثل الملك بعشا بن أخيا (1ملوك 33/15)، ومثله ايلة بن بعشا (1ملوك 8/16)، زمري (1ملوك 15/16) وعمري (1ملوك 23/15).

يبدو أن المدينة كانت جميلة بل مميزة، حتى شَبَّه كاتب النشيد حبيبته بترصة "أَنْتِ جَمِيلَةٌ يَا حَبِيبَتِي كَتِرْصَةَ، حَسَنَةٌ كَأُورُشَلِيمَ، مُرْهِبَةٌ كَجَيْشٍ بِأَلْوِيَةٍ" (نشيد 3/6).

تنظيمات يربعام الدينية

كان الإنقسام الذي وقع في الشعب سياسيا. وهذا يعني أن شعبي المملكتين كانوا ما يزالون يتبعون ديانة واحدة، وهذه بالطبع محطة قوة لصالح مملكة رحبعام – حفيد داود العظيم. لهذا كان لزاماً على يربعام معالجة هذه المشكلة معالجة جذرية. في الواقع إكتشف يربعام المشكلة منذ يومه الأول "إِنْ صَعِدَ هذَا الشَّعْبُ لِيُقَرِّبُوا ذَبَائِحَ فِي بَيْتِ الرَّبِّ فِي أُورُشَلِيمَ، يَرْجِعْ قَلْبُ هذَا الشَّعْبِ إِلَى سَيِّدِهِمْ، إِلَى رَحُبْعَامَ مَلِكِ يَهُوذَا وَيَقْتُلُونِي" (1ملوك 27/12).

كانت أورشليم المدينة العظيمة مقر الملك، ولكنها وهذا الأهم جدا، مقر المعبد العظيم الذي بناه سليمان، وصار مِحجًّا لكل شعب بني إسرائيل. بل هذه كانت العادة السائدة في كل الممالك، حيث قصر الملك، هنا معبد الآلهة الكبيرة، وربما في حالات أخرى اختلط مقر الملك بالمعبد نفسه!
كان الحل الذي ابتكره يربعام القائد الجديد والذكي، يقوم على اخترع ديانة جديدة، تستخدم مفردات الديانة القديمة، لكنها تحمل مضمونا مختلفا. النص شبه الوحيد الذي يخبرنا عن ديانة يربعام نجده في (1ملوك 12/25-33). يخبرنا هذا النص الحقائق التالية:

- ⇐ اعتمدت الدعاية الدينية على إبراز صعوبة السفر إلى أورشليم للتقرب من الله في هيكل أورشليم.
- ⇐ اعتمدت أيضا على استخدام عبارات مألوفة ومعروفة من قبل الشعب، مثلا في العدد 28 يقول للشعب "هُوَذَا آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ". في النص العبري استخدم كلمة "إلوهيم"، وهي نفس الكلمة المستخدمة في العهد القديم للإشارة إلى "الله" – إله العبرانيين. وبالتالي، لم يستخدم يربعام اسما جديدا أو غريبا لإلهه، بل كأنه يقول: هوذا إلوهيم الذي سار مع آبائنا من مصر!
- ⇐ اختار رمزا مألفوا للشعب بشكل أو بآخر، وهو العجل أو الثور.
- ⇐ اختار أكثر من موقع جغرافي حتى يجعل الأمر في متناول كل الشعب "وَضَعَ وَاحِدًا فِي بَيْتِ إِيلَ، وَجَعَلَ الآخَرَ فِي دَانَ".
- ⇐ أكمل الشكل الطقسي للعبادة بتعيين كهنة ليسوا بالضرورة من سبط لاوي، وأعياد ومواسم جديدة لم تتحدث عنها الشريعة.

ولعل القارئ يتبادر إلى ذهنه في قضية العجل سؤال كهذا: مِن أين أتى يربعام بفكرة "العجل"؟ يمكننا أن نتتبع أكثر من مصدر ساعد يربعام على تبني فكرة العجل وتطبيقها:

- ⇐ عجل هرون:

فالعجل كآلهة لم يكن بعيدا عن ذاكرة الإسرائيليين، فالكل يعرف قصة تأخر موسى على الجبل، والعجل الذهبي الذي صنعه هرون. لكن الكل يعرف أيضا أن الشعب كله أو ربما معظمه سار وراء هرون وعجله. وهذا يجعلنا نفترض أن عجل هرون غالبا كان على شكل الإله أبيس الفرعوني، الذي عرفه جيدا كل الشعب آنذاك، وربما شاركوا في عبادته في مصر.

- ⇐ العجول في هيكل سليمان:

ما لبثت العجول أن ظهرت ثانية في إسرائيل أيام سليمان، وذلك على شكل تماثيل جمالية تحمل حوض الماء الكبير، وقد كانت 12 ثورا نحاسيا (1ملوك 25/7). بل حتى القواعد الحاملة لذلك المجسم الضخم كانت

مزينة بزخارف أسود وثيران وكروبيم (1ملوك 29/7). من الواضح أن تلك التماثيل لم تكن مادة عبادة، لكنها رسخت في اللاوعي الشعبي ذلك الشكل المرتبط بالعبادة عند معظم الشعوب المحيطة، إضافة إلى تاريخهم الشخصي، إذ هي جزء من معبدهم العظيم!

⇐ تساهل سليمان مع الأوثان:
لم يظهر يربعام في أيام داود، عندما كانت عبادة يهوه سائدة بشكل كلي بين الشعب، ولم يتجاسر أحد على إظهار أي شكل أو حالة وثنية. لكنه ظهر أيام سليمان، حيث تكاثرت الزوجات الوثنيات، اللواتي أتين مع أصنامهن ومستلزمات عبادتها! "كَانَ فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةِ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلاً مَعَ الرَّبِّ إِلهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ" (1ملوك 4/11).

⇐ الحياة في مصر:
قضى يربعام شخصيا فترة طويلة من حياته في مصر محتميا بشيشق ملك مصر (1ملوك 40/11). ومن الطبيعي أنه شاهد، عرف وربما مارس بعض طقوس عبادة الآلهة المصرية، ومنها العجل. وربما اقتبس بعض مفرداتها وأفعالها في ديانته الجديدة في شكيم.

حروب يربعام

ليس لدينا سجلا كبيرا لحروب وبطولات يربعام، خاصة وأن كل المنطقة كانت ما تزال تمر بحالة من الاستقرار الإقليمي والعالمي. لهذا اقتصرت حروبه على المعارك والمناوشات مع الأخ – العدو.

⇐ المعركة التي لم تحدث:
إثر عودة رحبعام الملك الجديد من شكيم، ومعه رفض معظم الشعب له، بدأ التحضير لحملة ضد يربعام ومن معه، لكن تدخلا نبويا حذره من هذه الخطوة "لاَ تَصْعَدُوا وَلاَ تُحَارِبُوا إِخْوَتَكُمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. ارْجِعُوا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى بَيْتِهِ، لأَنَّ مِنْ عِنْدِي هذَا الأَمْرَ" (1ملوك 24/12)، فاستجاب الملك للطلب ولم يحارب.

⇐ حروب متعددة:
لا يبدو أن التشجيع الإلهي الذي أتى إلى رحبعام بالامتناع عن الحرب، قد استمر طويلا. لأن سفر الملوك الأول يعود ويخبرنا عن حروب أخرى. لكن تلك الأخبار التي تقدمها نصوص أسفار الملوك لا تقدم تفاصيل عن العلاقة بين رحبعام ويربعام ولا حتى حروبهما، بل يكتفي النص بتصريح يحمل صفة إجمالية "كَانَتْ حَرْبٌ بَيْنَ رَحُبْعَامَ وَيَرُبْعَامَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِهِ" (1ملوك 6/15)، ولعل المقصود هو "عداوة" أكثر منها حروب بالمعنى العملي.

⇐ معركة جبل صمارايم:
وقد جرت بين يربعام وأبيا خليفة رحبعام. في تفاصيل هذه المعركة، نجد أبيا يمهد لها بخطاب طويل ذكر فيها تمرد بني إسرائيل على يهوذا وشقهم مملكة داود (2أخبار 3/13-12). لكن حنكة يربعام الحربية، أوقعت قوات أبيا في كمين، لم يكن له أن يفلت منه لولا تدخل إلهي لصالحه! (2أخبار 13/13-18). ويبدو أن

الخسارة كانت كبيرة حتى أن أبيا استطاع سلب مدنا عديدة من يربعام يعددها في العدد 19 من النص السابق "طَارَدَ أَبِيًّا يَرُبْعَامَ وَأَخَذَ مِنْهُ مُدُنًا: بَيْتَ إِيلَ وَقُرَاهَا، وَيَشَانَةَ وَقُرَاهَا، وَعَفْرُونَ وَقُرَاهَا".

ختام عصره

ما عدا تنبوء أخيا النبي بموت ابن يربعام ونهاية مملكته، لا تسجل لنا أسفار الملوك أية معلومات خاصة عن يربعام سوى ما ندر، أو ما يمكن أن نستخلصه من سياق القصص.

⇐ مدة حكمه ووريثه:

امتد حكم يربعام 22 سنة، جالسا على عرش مملكة إسرائيل الجديدة – القديمة، عاصر خلالها من ملوك مملكة يهوذا رحبعام، اللذان ابتدأ حكمهما بنفس السنة، ثم أبيا (أبيام) ابن رحبعام، ثم آسا ابن أبيا.

⇐ التنبوء بنهاية المملكة:

يوم كَلَّم أخيا النبي يربعام وأعطاه وعد الله بإعطائه المُلك، كان الشرط الإلهي واضحا وصريحا "إِذَا سَمِعْتَ لِكُلِّ مَا أُوصِيكَ بِهِ، وَسَلَكْتَ فِي طُرُقِي، وَفَعَلْتَ مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ فِي عَيْنَيَّ، وَحَفِظْتَ فَرَائِضِي وَوَصَايَايَ كَمَا فَعَلَ دَاوُدُ عَبْدِي، أَكُونُ مَعَكَ وَأَبْنِي لَكَ بَيْتًا آمِنًا كَمَا بَنَيْتُ لِدَاوُدَ، وَأُعْطِيكَ إِسْرَائِيلَ" (1ملوك 38/11). لكن، بسبب العبادة الجديدة التي ابتدعها يربعام، أتاه الإعلان الإلهي سريعا على فم نبي لم يُذكر اسمه "يَا مَذْبَحُ، يَا مَذْبَحُ، هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هُوَذَا سَيُولَدُ لِبَيْتِ دَاوُدَ ابْنٌ اسْمُهُ يُوشِيَّا، وَيَذْبَحُ عَلَيْكَ كَهَنَةَ الْمُرْتَفَعَاتِ الَّذِينَ يُوقِدُونَ عَلَيْكَ، وَتُحْرَقُ عَلَيْكَ عِظَامُ النَّاسِ" (1ملوك 2/13). ثم أتى تأكيد آخر على فم أخيا النبي "لِذلِكَ هأَنَذَا جَالِبٌ شَرًّا عَلَى بَيْتِ يَرُبْعَامَ، وَأَقْطَعُ لِيَرُبْعَامَ كُلَّ بَائِلٍ بِحَائِطٍ مَحْجُوزًا وَمُطْلَقًا فِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنْزِعُ آخِرَ بَيْتِ يَرُبْعَامَ كَمَا يُنْزَعُ الْبَعْرُ حَتَّى يَفْنَى" (1ملوك 10/14).

⇐ موته وولاية العهد:

لا تفاصيل فيما يخص نهاية حياة يربعام سوى: "الزَّمَانُ الَّذِي مَلَكَ فِيهِ يَرُبْعَامُ هُوَ اثْنَتَانِ وَعِشْرُونَ سَنَةً، ثُمَّ اضْطَجَعَ مَعَ آبَائِهِ، وَمَلَكَ نَادَابُ ابْنُهُ عِوَضًا عَنْهُ" (1مل20/14). ليملك ابنه ناداب على مملكة إسرائيل.

استمرت مملكة يربعام الأول والتي تدعى عادة مملكة إسرائيل أو المملكة الشمالية ما يزيد على 200 عام، عرفت خلالها عصورا من الازدهار والاستقرار، وعصورا أخرى من التقهقر والتراجع. ساهمت بفاعلية ببعض التحركات الإقليمية، وكانت مسرحا لأحداث وتحركات أخرى أثرت عليها بشدة. لكنها بالطبع لم تصمد في النهاية أمام الاجتياح الآشوري، كما حدث مع مملك أخرى في المنطقة.

كل هذا المشروع الكبير، بدأ مع رجل شجاع، فذٍ وذكي، استخدم مقدراته حتى أقصاها لصنع مملكة ومجد لنفسه ونجح، لكنه في الوقت عينه سخر تلك الامكانيات عينها لفعل الشر وترسيخ ابتعاده عن الله الذي أراد مباركته والسير معه! لم يأبه للوعد الإلهي الذي أتاه باكرا جدا "إِذَا سَمِعْتَ لِكُلِّ مَا أُوصِيكَ بِهِ، وَسَلَكْتَ فِي طُرُقِي، وَفَعَلْتَ مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ فِي عَيْنَيَّ، وَحَفِظْتَ فَرَائِضِي وَوَصَايَايَ كَمَا فَعَلَ دَاوُدُ عَبْدِي، أَكُونُ مَعَكَ وَأَبْنِي لَكَ بَيْتًا آمِنًا كَمَا بَنَيْتُ لِدَاوُدَ، وَأُعْطِيكَ إِسْرَائِيلَ" (1ملوك 38/11)، ولم يتعظ من مصير مملكة سليمان الآيلة للإنقسام أمام ناظريه، وبمشاركته شخصيا، والسبب أن سليمان ونسله لم يسروا أمام الله باستقامة!

رفض الوعد والوصية المرافقة له، فخسر نفسه، ووزَّث الخسارة لنسله الذي لم يستطع الاحتفاظ بالملك لنفسه!